من أعلام الحركة الوطنية التونسية

عبد العزيز الثعالبي(1876-1944م)

يقول الثعالبي:(كنت صغيرا ورأيت أمي تبكي،فسألتها السبب، فقالت: أما رأيت الفرنج مروا من هنا ؟ وهؤلاء لا يخرجون إلا بالحرب)

يعتبر الثعالبي من أكبر زعماء الإصلاح والسياسة في تونس والعالم العربي الإسلامي، فقد اجتمعت في شخصيته مواهب الخطابة والنقد والاجتهاد، فكان رغم تكوينه التقليدي متفتحا على الحداثة متصلا بأعلام الفكر في العالم العربي والإسلامي، مطلعا على تيارات الإصلاح ومدارسه، وقد أتاح له رصيده الفكري ونضاله السياسي تبوأ مكانة متميزة في تونس؛ وفي الأقطار التي أقام بها لاجئا.

ولد عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الرحمن الثعالبي بتونس في 05 سبتمبر 1876م من أسرة جزائرية الأصل استقرت في تونس منذ فترة طويلة، زاول تعليمه في الصادقية وعدها في جامع الزيتونة؛ حيث تتلمذ على ثلة من المشايخ مثل اسماعيل الصفايحي وسالم بوحاجب والمكي بن عزوز، ومع ذلك شق الثعالبي طريقه في عالم الفكر والسياسة بعصامية فريدة، فكانت التجارب والمحن محكا لشخصيته ومصدرا لتفكيره وتأملاته، ودافعا على تثبيت مواقفه. عاش الثعالبي ناقما على الاستعمار بتجاوزاته، ودخل في مواجهات حادة مع خصومه والبعض من أصدقائه، إلا أنه اكتسب في المقابل قدرة فائقة على الجدل والنقد وخبرة في السياسة والنضال بفضل احتكاكه بكبار رجال الإصلاح والسياسة في عصره من المسلمين والأوروبيين، وما أتاحته له أسفاره من تجارب وسعة اطلاع.

ظهرت أفكار الثعالبي التجديدية في فترة مبكرة، من خلال إصدار جريدة +**في سبيل الرشاد"** سنة 1895م؛ التي لم تعمر طويلا، لأن السلط بادرت بتعطيلها؛ بعد سنة من ظهورها بسبب مواقفها المناهضة للحماية، وقد دفعته هذه التجربة إلى الهجرة؛ فتحول إلى الشرق ثم أوروبا، حيث التقى بعديد السياسيين ورجال الإصلاح مثل محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي ورشيد رضا. وفي سنة 1902م عاد الثعالبي إلى تونس يحمل أفكارا جديدة وتصورات مبتكرة عن التطور الفكري والاجتماعي؛ وعلاقة الدين بالمدنية الحديثة، فاتخذ من مقهى التوتة بالحلفاويين فضاءا يلتقي فيه مع أصدقائه ومريديه، ولكن مواقفه أثارت سخط بعض المتزمتين من مشايخ الزيتونة، فتعرض لأول محنة فكرية في حياته، إذ أحيل على محكمة الدريبة بتهمة التطاول على مقامات الأولياء. وأثير الرعاع ضده، وأودع في جويلية 1904م السجن لمدة شهرين، ولم يستسلم الثعالبي لهذا الغبن الفكري، فقام بالرد على دعاة التزمت بتأليف كتاب عنوانه +**الروح الحرة للقرآن"**، أصدره بباريس عام 1905م؛ بعد نقله إلى الفرنسية من قبل الهادي السبعي وسيراز بن عطار.

كان لزيارة الشيخ محمد عبده لتونس 1903م والخلاف الذي استشرى بينه وبين جمال الدين الأفغاني أثره على فكر الثعالبي(ذلك أن الأفغاني يرفض أي هدنة مهما كان شأنها مع القائمين على

الحكم، ما داموا قبلوا الاستعمار ويرى مصانعة الأجنبي ضلالا، والشيخ محمد عبده يرى في التبشير الهادئ القابل بما هو موجود طريقا للخلاص، كما أن جمال الدين يعتبر أن الجهاد هو الذي يوقظ الشعوب وأن النفوس تبرأ على لهبه من أدران الواقع، وأن من يصانع فيرضى، يصبح بعضا من ذلك الواقع؛ يخنع بخنوعه، فلا تبقى له القدرة على مجابهته حتى بالفكر، لأن الفكر هو تجلي الصراع لا كابحا له، وقد كان الثعالبي ممثلا لهذا الاتجاه.

أول ما برز الثعالبي قائدا شعبيا تلتف حوله الجماهير، كان يوم أعلنت ايطاليا الحرب على تركيا سنة 1911م ونزلت قواتها في ليبيا، فقد سخر قلمه ولسانه للدفاع ضد الغزو؛ وشد أزر المقاومة، وتعاون مع القادة الأتراك؛ حيث جعل من الإتحاد الإسلامي الناطق شبه الرسمي لنضال وعواطف تونس، وأشرف على صندوق تبرعات وطني لمد الكفاح الليبي.

تبعا لذلك بدأ الثعالبي في اكتساب حظوة فكرية لدى النخبة المثقفة، وفي أوساط الطلبة، واتسعت صلاته الاجتماعية والسياسية؛ بانضمامه إلى **حركة الشباب التونسي** يتردد على المنتدى التونسي، ثم أشرف على تحرير النشرة العربية لجريدة **'التونسي'** وصحيفة **الإتحاد الإسلامي**.وقد برزت قدرة الثعالبي على العمل السياسي المباشر في مناسبتين، أولهما: **إضراب طلبة الزيتونة** سنة 1910م، عندما وقف خطيبا في صفوفهم يحثهم على التمسك بمواقفهم، وثانيا: أحداث **الزلاج** التي تقول التقارير الفرنسية في شأن اندلاعها، أن الثعالبي كان ضالعا فيها؛ يحث الناس على التجمهر أمام المقبرة يوم الواقعة. ويفسر هذا الموقف قرار الإبعاد إلى فرنسا؛ الذي صدر ضده بعد ذلك بأشهر (مارس 1912) بمناسبة مقاطعة الترامواي، وإقدام الحكومة على غلق الصحف والمقاهي الشعبية، وهكذا اضطر الثعالبي للإقامة بالخارج متنقلا بين أقطار عديدة، فقد ذهب إلى استانبول ثم عاد إلى فرنسا، وما لبث أنقام برحلة طويلة في بلدان الشرق، ولم يرجع إلى تونس إلا سنة 1914م. وبانعقاد مؤتمر الصلح (باريس)، نجح الثعالبي -الذي أرسل لمساعدة أحمد السقا لتقديم تونس- في مهمته نجاحا منقطع النظير بالدعوة لقضية تونس وحشد الرأي العام العالمي حولها، ولم يجد مجالا ينفذ منه إلى الرأي العام الفرنسي إلا ولجه فقد اتصل بالزعماء الاشتراكيين ووثق عرى الصداقة معهم؛ فقد ربطته صداقة حميمة مع زعيم الاشتراكيين **مارسيل كاشان** الذي مكنه من عرض القضية على مجلس النواب، وتمكن أيضا من الاجتماع بلجنة حقوق الإنسان التي وعدت بالاهتمام بالمسألة التونسية، ونظم الاجتماعات وكتب المقالات،وأسس وترأس **جمعية الطلاب التونسيين**، كما أسس مع الأستاذ شارل جيد **الجمعية الفرنسية التونسية**.

بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، اقترن اسم الثعالبي بتأليف كتاب **تونس الشهيدة** دون توقيع الذي يعتبر أول ميثاق للحركة الوطنية، فنجح نجاحا منقطع النظير، وعمل على تعميمه في حنكة ومهارة، أرسله بالبريد إلى كل المسؤولين في فرنسا من وزراء ونواب وموظفين كبار؛ وإلى المحافظات الفرنسية، وتمكن بوسائله الخاصة من إيصاله إلى تونس واستلهمه الناس في كتابة العرائض التي تحمل آلاف التواقيع للباي وللمقيم العام، وعلقت عليه الصحف واقتطعت منه الصحف الحرة مقاطع كثيرة نشرتها، وبتأسيس **الحزب الحر الدستوري التونسي** عام 1920م والدفاع عن برنامجه، إذ تحول إلى فرنسا للاتصال بأقطاب الفكر والسياسة وشرح القضية

التونسية، كانت الضجة أكثر مما يطيقها المعمرون والإدارة الاستعمارية، الشيء الذي دفع السلط الفرنسية إلى إيقافه وإحالته على المحكمة العسكرية بتونس بتهمة التآمر على أمن الدولة.

أخذ اتجاه الثعالبي يقوى ويشتد في تونس، فلما خرج من السجن بعد صدور قرار بمنع محاكمته في أيار عام 1921م بات الزعيم، وأطلق عليه الناس لقب **سعادة الرئيس**. أثقل الجو على الثعالبي وأحس للمرة الأولى باليأس، فاضطر إلى الخروج من تونس من جديد في سنة 1923م، والإقامة بالشرق العربي، حيث اتصل بالملك فيصل بالعراق؛ وعلي عبد الرزاق بمصر و الحاج محمد أمين الحسيني بفلسطين، وقد دعاه هذا الأخير لحضور المؤتمر الإسلامي، وكلفه بالتحضير له؛ فوضع نظامه وسهر على المنفذين دائبا على نجاحه في سنة ديسمبر 1931م، وفي 09 جويلية 1937م عاد الثعالبي إلى تونس، بعد أن انقسم الدستوريون في مؤتمر قصر هلال الانقسام التاريخي المشهور وتحول القيادة إلى الرئيس الحبيب بورقيبة، وانحسرت موجة الثعالبي انحسار الأمواج عن الشاطئ، حيث توفي بتونس في أكتوبر 1944م.

علي باش حامبة(1876-1918م)

يعد علي باش حامبة من الشخصيات المؤسسة للحركة الوطنية التونسية، فقد انقطع للعمل السياسي والاجتماعي منذ بداية شبابه، فكانت حياته على قصرها، ثرية بالمشاريع التنظيمية وبالتجارب الإنسانية والسياسية العميقة.

ولد علي باش حامبة بمدينة تونس سنة 1876م في أسرة تركية الأصل، وكان والده من أعوان الوزير مصطفى بن اسماعيل، تلقى تعليمه بالمدرسة الصادقية، وبعد حصوله على شهادة ختم الدراسة عين وكيلا بالمعهد الذي تعلم فيه، مكلفا بالتصرف في العقارات الراجعة له بالنظر، ولكنه لم يلبث أن انتسب إلى جامعة اكس الفرنسية لدراسة القانون، فأعد الإجازة ثم أحرز الدكتوراة في الحقوق، مما مكنه من التخلي عن الوظيف والانخراط في سلك المحامين.

تشبع علي باش حامبة خلال دراستهثم إقامته بالخارج بالقيم والمبادئ الليبرالية والأساليب الحديثة في التنظيم والتسيير، ولعل هذا ما دفعه إلى معالجة مظاهر القصور في مجتمعه بترويج الأفكار الإصلاحية والعمل على ترجمتها ميدانيا، وهكذا راح يدعو للنهوض بالتونسيين بتعميم الحداثة وتوجيهها توجيها وطنيا، واتخذت دعوته أسلوبا عمليا منظما من خلال المساهمة في بعث منابر جديدة للحوار والتبليغ منها **المنتدى التونسي Le cercle tunisien** وجمعية قدماء الصادقية وجرائد **التونسي Le Tunisien والاتحاد الإسلامي.**

انخرط باش حامبه في النشاط السياسي في بداية القرن، فكان يتعامل مع النظام الاستعماري وفق الوضع داخل تونس وخارجها، فاتسم أسلوبه في بداية الأمر (1905-1910م)بمهادنة حكومة الحماية، ثم أخذ طابع التحدي المستتر حينا والمعلن أحيانا، فلما قررت السلط إبعاده عن تونس(1912م)أظهر عداء واضحا للاستعمار، وأصبح في عداد المتمردين.

كان علي باش حامبة في بداية نشاطه السياسي يؤمن مثل بقية رفقائه بإمكانية التعاون مع حكومة الحماية على أساس تشريك التونسيين وفي تصريف شؤونهم الإدارية، وفي تسيير دواليب الحياة السياسية، كما كان يؤمن بجدوى التقارب بين التونسيين والفرنسيين، لذلك كان يدعو إلى الإقتداء بالأساليب الغربية في التنظيم والتفكير دون التفريط في مقومات الهوية الوطنية، وقد قاده هذا الموقف المعتدل إلى الإقرار بلزوم الحماية الفرنسية الدعوة إلى التعاون معها، ولكنه لم يلبث أن أصيب بخيبة أمل بسبب تحفظ الحكومة وتشدد المتفوقين من غلاة الاستعمار. اتجهت الأنظار إلى علي باش حمبة بعد صدور **جريدة التونسي** وتعيينه بإجماع أقرانه مديرا سياسيا لها(فيفري 1907م)، فأظهر براعة في الجدل السياسي والقانوني وواجه آراء غلاة الاستعمار بالنقاش والحجة، وتقول المصادر الأرشيفية الفرنسية أن علي باش حمبة أصبح زعيما **لحزب الشباب التونسي** بعد انسحاب العناصر المعتدلة منه، فأعطاه وجهة متشددة وأصبح العقل المدبر لجميع المواقف المناهضة للحماية.

وقد برزت خصال علي باش حمبة التنظيمية والقيادية ابتداء من سنة 1910م، إذ أصبح لا يتوانى عن العمل السياسي المباشر، فنزل إلى الساحة العامة خطيبا يشد أزر طلبة الزيتونة المضربين، وفتح لهم أعمدة جريدة التونسي، وكانت الحرب التركية الإيطالية في طرابلس مناسبة جديدة لتأكيد مناهضته للاستعمار الأوروبي، وإعلان تضامنه مع دعاة الجامعة الإسلامية، فأصدر بالمناسبة جريدة **الإتحاد الإسلامي** التي ساهمت في تحريرها أقلام تونسية معروفة مثل عبد العزيز الثعالبي ومحمد جعايبي والصادق الزمرلي. وتقول التقارير الفرنسية أنه أنشأ لجنة سرية لجمع التبرعات لفائدة الأتراك باسم الهلال الأحمر، وبذل جهودا كبيرة لإغاثة المصابين، وحث التونسيين على التطوع في الجيش العثماني.

وتجلى طموح باش حانبة الوطني من خلال الحركة الاحتجاجية التي انتظمت بمناسبة مقاطعة التونسيين للترامواي في شهر مارس 1912م، فقد تزعم اللجنة السرية التي تكونت من لتأطير الحركة، وحرك المظاهرة التي انتظمت في الأسواق في (01مارس 1912م) بمناسبة زيارة الباي لها عشية المولد النبوي، كما أظهر خلال المفاوضات التي جرت مع الكاتب العام للحكومة ومدير الأمن ثباتا على الموقف لذلك، ثم تم نفيه بأمر صادر عن الباي في 13 مارس 1912م، وجرى تسفيره فجرا من ميناء بنزرت في اتجاه مرسيلسا.

ورغم إلغاء أمر الإبعاد بعد ستة أشهر، فقد رفض باش حانبة العودة إلى تونس مفضلا الاستقرار باستانبول، حيث اتصل بالمهاجرين الجزائريين والتونسيين المستقرين هناك، وواصل مناوئة فرنسا بأسلوب آخر، وقد أتيح لعلي باش حانبة الانخراط في سلك الإدارة العثمانية، حيث تم انتدابه بصفة مفتش للعدلية في إقليم استانبول، ثم كمستشار دولة وأخيرا كرئيس تفقدية بوزارة العدلية، لذلك اعتبرته فرنسا في حالة تمرد، وقامت بعقل أملاكه في تونس وبيعها لفائدة الدولة بمقتضى أمر صادر في 05 جويلية 1917م، توفي علي باش حانبة باستانبول في 29 أكتوبر 1918م.